خراباً الى انقضاء الدنيا. افكان حقاً في قوله ام لا ؟. فان كنتم ايها اليهود تسمعون هذه الاشياء وتسكتون فانَّ الحجارة تنطق وتثبت لكم انكم هلكتم يوم اهرقتم دم يسوع الناصري. فلو أعطي لك ان ترى هيكلك يقوم ثانيةً ببيت المقدس وان تعاين التابوت موضوعاً عليهِ وان تشاهد مجد الله من السماء يأتي ويغطي مذبحك او تنزل النار السماويَّة عليهِ وان يُدهَن فيهِ ملوكك (305) فضد ذلك تستطيع ان تحيي رجاءك. ولكن ان هيكلك صار اصطبلاً ومذوداً للبهائم وتحقَّق ان امتك صارت الى لاشيء وهيكلك صار خراباً الى انقضاء الدنيا كما قال المسيح (١ : « هاءنذا اجعل هيكلك خراباً الى آخر الدهور » فليعلم بهذا بنو العموديَّة ويتَّخذوه سلاحاً مع اليهود بني اللعنة. ولتسكت الكنيسة بهذه الآية على الذين يقاتلوننا

واما نحن المؤمنين فلندرس دائماً اسرار آلام ربنا ممجدين إفراط تنازله الينا وشفقته علينا وحبّه لنا وصبره على الآلام لاجلنا وصموده على الصليب لخلاصنا. ولنصلب معهُ ذواتنا متجرّدين من كافَّة الشهوات والامور الارضيَّة متشبهين بسيدنا المسيح ابن الله الوحيد الذي لهُ ينبغي الملك والمجد والتسبيح مع الآب والروح القدس الى ابد الأدهار آمين

تاريخ الحرير في بلاد الشام

للسير غستون دركوستو المنوط بقنصليَّة فرنسة النخيبة في بيروت (٢

لا مراء في انَّ فينيقية منذ قديم الزمن كادت تحتكر كلّ الانسجة الثمينة. وكانت الاقمشة الفينيقيَّة تُقدَّم على سواها ليس فقط لحسن نسجها واتقان حياكتها ولكن ايضاً او قل بالاحرى لصبغها بالارجوان او البرفير. وفي تقليد اهل صور انَّ إلههم مَلكَرْت كان اوحى اليهم بسرّ هذا الصبغ الذي كانوا يستخرجونهُ من صدف

١) متى ٢٣ : ٣٨

٢) معرَّب عن مقالة مطوَّلة لجنابهِ نشرها آخراً في مجلة الحرير والانسجة الحريريَّة التي تطبع مرَّةً في الاسبوع في مدينة ليون فسح لنا ان نقتطف منها ما شئنا لقرَّاء المشرق. (Bulletin des Soies et des Soiries, *Novembre 1911 - Janvier 1912*)

بحري يُدعى بلسان العلم « Murex trunculus » وهو انواع والوانهُ تتراوح بين الازرق الناصع والبنفسجي الضارب الى اللون الوردي القاني وقد افاض بليني في تاريخهِ الطبيعي (ك ٩ ص ٦٠) ثم پولُكس (ص ٤٥ و٤٩) في وصف هذه المادَّة الصبغيَّة وافادوا انَّ اهل صور وصيداء حفظوا سرَّ صناعة الارجوان وضنُّوا باذاعتهِ على غيرهم حتى عهد الرومان

ومنذ القرن السادس قبل المسيح قد عدَّد حزقيال النبي (الفصل ٢٧ من سفرهِ) اصناف الموادّ النسجيَّة عاماً كانت او منسوجة التي كانت تُباع في اسواق فينيقية فذكر اصواف دمشق البيضاء وبزّ مصر الموشَّى وتجارة الركوب لددان الى ان قال اصور (ع ١٦): « وأرام (اي اهل الشام) متَّجرة معكِ في كثرة صنائعكِ وبالبهرمان والارجوان والخزّ والكتَّان والمرجان والياقوت اقامت اسواقكِ ». فقولهُ الخزّ دعاه بالاصل العبراني راموت (רקמה) وقد اختلف المفسرون في معنى هذه اللفظة فشرحوها بالنسيج الثمين وعرَّبوه في الترجمة العربيَّة بالوشي. امَّا الترجمة اللاتينيَّة للقديس ايرونيموس فصرَّحت بذكر الحرير (sericum) او الخزّ وهو المعنى الذي غلبهُ في ايَّامنا الشرَّاح. وفي ذلك دليل على انَّ بلاد الشام كانت تجهِّز في ذلك الوقت الانسجة الحريريَّة وترسلها الى صور وصيداء. على ان سكان الشام لم يبيعوا ذلك الوشي كاحد محاصيل اقطارهم اذ كانوا يجهلون تماماً اصل الحرير وتركيبهُ وانَّما كانوا يستجلبونهُ بواسطة القوافل من تركستان الصينيَّة المدعوَّة وقتئذٍ بلاد « ميدون » فتأتي بهِ على طريق تدمر. وبقي الفينيقيُّون على دأبهم ذاك الى القرن الحادي عشر بعد المسيح فكان تجارهم يستمدُّون حاجتهم من الحرير من الباعة الصينيين في كنغ تونغ وخان سي فيقطعون الاقطار البعيدة ويدفعون لاهل فارس ضريبة فادحة

ولمَّا انتشبت الحرب بين مارك مادای والرومان في عهد يستنيان لم يعد التجار يستطيعون المرور في بلاد العجم فبحث احد تجار سوريَّة للسِّي مايس تيتانوس (Maes Titanus) عن طريق آمن تبلغهُ الى المراكز الصينيَّة ليبتاع منها الحرير فعدل الى طريق الفرات وتوغَّل في بلاد الهند حتى الصين فادرك غايتهُ وعامل الصينيين رأساً. وفي كتب الصينيين انهُ سبق مايس تيتانوس ودخل الصين قبلهُ وفدٌ

آخر كان وجّههُ صاحب الدولة الرومانيّة المدعوّة في كتب الصينيين مملكة تاتسين واقتنى منهـا الحرير وذلك في السنة ١٦٦ للمسيح. واستأنف البعثة غير مرّة ايضاً في السنة ٢٢٦. هذا ما اثبتهُ المسيو برلسيه (M^r Boissier) في معجم العاديّات

وكان تجار الشام يسمّون الحرير الذي ينقلونهُ من ممالك الصين « حرير الحاضرة » (Serametropolis) المعروفة بسيغنان فو (Si - gnan - fou). وكان الحرير يأتيهم على ثلاث صور منهُ الحرّ اي الحرير قبل تحليله ونسجه وهم يدعونهُ ميتاكسا (μεταξα) وكان ثمن الليبرة منهُ اي ٥٠٠ غرام يبلغ ١٢٠٠٠ درهم والدرهم وقتئذٍ يساوي من نقودنا ٦٢ سنتيماً. وكان الحرّ اغلى الاصناف قيمة وارفع شأناً وكان الفينيقيون يصبغونهُ بالارجوان الذي يساوي ثقلهُ ثمن الفضة كما افادنا المؤلف تيوفيس وهـذا افضل الارجوان وكانوا يسمّونهُ باسم بلّاتا (βλαττα) واذا تمّ صبغهُ دعوهُ ميتاكسا بلاتا (μεταξαβλαττα) وباعوا الليبرة منهُ حتى ١٦٠,٠٠٠ الى ١٧٠,٠٠٠ درهم

وكان الصينيون يبيعون حريرهم ايضاً عللًا ملفوفاً على مكبّات فكان اهل صور وصيدا يستأجرون العتلة الحاذقين لمدّ تلك الخيوط وتسويتها

وكان تجار الصين يصدرون ايضاً حريرهم بهيئة البسة شتى واثواب مختلفة (ἱμάτια σηρικα) فيتخذونها للابسهم او ينزعون خيوطها لتركيب ملابس غيرها يجعلون لُحمتها حريراً وسداها كتاناً او قطناً. وكان معظم باعة هذه المنسوجات من سوريين او يهود يُحسنون وصف هذه الاثواب الحريرية فيرفعون قدرها ويبيعونها بمبالغ طائلة

وكان لباعة الحرير (sericarii) في رومية حيّ مخصوص ومخازن تُباع فيها الحرائر المجلوبة من سوريّة والمصبوغة بالارجوان الفينيقي. وأعلمنا سينيكا ان قوماً من السوريين واليهود كانوا يطوفون احياء رومية ليبيعوا منسوجات الحرّ

ولمّا صار الملك في ايدي الامبراطرة البوزنطيين احتكر عمّال الدولة مبيع الحرائر فاصبحت مصابغ الارجوان السوري واكثر مناسجهِ في حوزة الحكومة. وكان يبلغ عملة تلك المعامل حذقاً غريباً. وقد شهد على حسن تلك المنسوجات المؤرخ الشهير تاودوريطس اسقف كورش في ميسرهِ عن العناية الالهية فاخبر ان بعض تلك

الاقمشة الحريريَّة كانت مطرَّزة تمثل حياة السيد المسيح واعماله فيلبسها الاشراف على تلك الصورة

وقد وردت في دستور المملكة البوزنطيَّة عدَّة شرائع تنهى الاهلين عن تقليد الجوائز المنسوجة في المعامل الملكيَّة. ومنذ السنة ٣٦٩ كانت النساء التابعات لبلاط ملك الروم في القسطنطينيَّة يتولَّين وحدهنَّ عمل الاقمشة المنسوجة بقصب الابريسم المزركشة بالذهب واصدر الامبراطور ارقاديوس سنة ٤٠٦ امرًا بان يُجمع كل ما يوجد في الدولة من الحرير الخام او الحرير المنسوج فيُعطى لهنَّ

ولما صار الملك الى يستنيان أُصيبت صناعة الحرير بأزمة شديدة ذكرها المؤرخ بروكوبيوس في تاريخ الحرب الفارسيَّة (Procope, *de Bello Persico*) قال انهُ لما قامت الحرب على ساق بين الروم والعجم لم تعد تستطع القوافل السوريَّة ان تجلب الحرير من بلاد ميدون فأصبحت المعامل الحريريَّة في القسطنطينيَّة في ضيقة عظيمة لنقص المادَّة الحريريَّة فانتهز يستنيان هذه الفرصة لتحديد اسعار الحرير فامر ألَّا تُباع الليبرة اكثر من ثمانية دنانير فرأى تجار فينيقية في هذا الامر مجالًا لحقوقهم ولم يعودوا يرضون باستجلاب الحرّ بل اقفل تجار صور وصيداء وارواد وبيروت مخازنهم وهاجروا الى بلاد العجم ولم يبقَ تحت حكم الرومان غير وكلاء المعامل الملكيَّة (Comes largitionum) الذين واصلوا الشغل لانَّ اوامر الملك لم تنلهم وكانوا يبيعون الليبرة من الحرير المصبوغ صبغًا اعتياديًا في معاملهم ٧٢ دينارًا . ومع كلّ ذلك اذ لم تحطّ الحرب عن اوزارها ما لبثت صناعة الحرير ان كسدت لقلة مادَّتها في ارض الرومان حتى فنيت تمامًا بعد زمن قليل

وبينما كان العموم يظنون ان تجارة الحرير لن تعود الى الحياة بعد موتها اذ حدث امرٌ خطير انعشها واعادها الى زهرها بوقوف الرومان على طريقة استحضار الابريسم ودونك تحرير الخبر

احبَّ الملك يستنيان ان يطلع على سرّ الحرير وكيفيَّة صناعته لعلَّهُ يتدارك بذلك الخلل الذي لحق ماليَّة الدولة بكساد سوقه فوكل الى راهبين مرسلين من النصارى اصلهما من العجم ان يرحلا الى الصين فيبحثا عن الامر ويتحققا صنع الحرّ

وكان الفينيقيون قبل ذلك ومنهم اليونان والرومان يجهلون حقيقة اصل الحرير

المجلوب من الشرق الاقصى فيظنون انهُ يُستحضر من النبات. قال بلينيوس في تاريخهِ (ك ٦ ف ٢٠): انَّ للسار (وهم الصينيون) غابات غنيَّة بنابتها الصوفيَّة فيتزعون ما يجدون على اوراق الاشجار من الزغب الابيض ويرشونهُ بالماء ثم تحلُّ نساؤنا هذا الصوف وينسجنهُ . . . حتى يصير ثوباً ناعماً تلبسهُ السيدات ويتباهين بهِ». ومثلهُ زعم أميان مرقلّان في القرن الرابع حيث قال: «ان اهل الصين ينقعون اوراق اشجارهم مرارًا فيجنون عليها زئبرًا ناعماً جدًّا ينزلونهُ وهو الحرير»

تلك كانت مزاعم القدماء في الحرير حتى عاد المرسلان سنة ٥٥٢ الى القسطنطينية كما تناقلهُ تقليد المؤرخين واعلما الامبراطور يستنيان بحقيقة الخبر واطلعاهُ على فيالج (شرانق) دود الحرير وكشفا لهُ السرَّ الذي كان الصينيون يتفانون على حفظهِ. وكان الراهبان جعلا تلك الشرانق في عصاة مجوَّفة بحيث لم ينتبه احد من اهل الصين الى عملهما. وقد اخبر المؤرخ بروكوبيوس انَّ الراهبين استجلبا تلك الفيالج من بلد يدعوه سيرندا الموافق على ما يُظن لبلاد خوتن (Khoten) في آسية المتوسطة. ويؤيد ذلك ما نقلهُ بعض كتبة الصين ان صناعة الحرير كانت انتشرت في تلك المقاطعات منذ زمن مديد

وعُرف دود الحرير اوَّلًا باسم «النملة البربريَّة» كما دعاه القديس بولس المعروف بالسكيتي في وصفهِ كنيسة آجيا صوفيا فقال عن ستر مذبحها انهُ من نسيج «النملة البربريَّة»

واذ كانت بلاد الشام قد اشتهرت سابقاً باستجلاب الحرير وصبغهِ اراد يستنيان ان تُنقل اليها دود الخزّ فتربّى هناك لاسيما ان التوت غذاء تلك الحشرات يكثر عندهم الى ان يطعموا ورقهُ للحيوان. فما وصل الدود الى الشام حتى اقبل السوريون على تربيتهِ بكل رغبة فأُنشئت في بيروت اوَّلًا ثم في حمص وحماة معامل حريريَّة راجت اسواقها

فلمَّا علم يُستنيان بما نالتهُ صناعة الحرير من النجاح حدا بهِ الطمع لتوفير ماليَّة الدولة الى ان يحتكر العمل فامر انَّ معامل الحرير تكون كلها مال الدولة وان لا يُسمح بنسجهِ ولا بصبغهِ الَّا في معامل الحكومة. وزاد على ذلك امرًا آخر لكلّ باعة الحرير بان يبيعوا لتلك المعامل وحدها شرانقهم باسعار محدودة وانَّ من يتجاوز تلك الاوامر يُقضى عليهِ قضاء مجرم جانٍ على السلطان عينهِ فيُحكم عليهِ باشدّ العقوبات.

فكانت تلك الاحكام ضربةً كادت تقضي على صناعة الحرير في انحاء الشام حتى ان العرب لما فتحوا سورية وجدوا معامل الحرير في بيروت وصيداء وارواد ليس الّا

وبقيت تلك الصناعة خاملة حتى عهد بني اميّة الذين انهضوها من خمولها . قيل انَّ معاوية اوّل ملوكهم انشأ سنة ٦٥٥ في قصره المسمى بالخضراء في دمشق معملًا للحرير فعُرفت منسوجاتهُ بالطُرُز وشاعت في كل الاقطار وكان الخلفاء يهدونها لعمّالهم . وما لبثت صور وحلب ان انتسا بدمشق وفتحتا معامل نفقت اسواق حريرها حتى غلبت طُرُزهما في عهد بني عباس على طرز دمشق . وكان تجار الفرنج من مدينة أمالفي في ايطالية يتردّدون اليها وينقلون منها انسجة الحرير الى الاسواق الاوربيّة ويفضلونها على حرائر دمشق لقرب صور من البحر ولوقوع حلب على طريق القوافل ومما رواهُ الراهب دي سان غال انَّ حاشية الامبراطور شرلمان ملك فرنسة كانوا يزدهون بملابس الحرير ولا يرضون بغيرها . وكان الامبراطور يستاء من عمالهم ويحضُّهم على تفضيل ثياب أخرى من الكتان ارخص ثمناً كما كان يلبس هو على زيّ الفرنج فلم يقتنعوا بقولهِ . ومن ثم دعاهم في احد الأيام الباردة المطرة الى الصيد فعادوا عند المساء وثيابهم مبلولة والبرد قد اخذ منهم كل مأخذ فادخلهم في غرفة أُوقدت فيها نار مشبوبة ليجففوا فأثّرت النار في ثيابهم وجعّدتها وشقّقتها فكان عملهُ عبرةً لهم رادعة

وكانت اسواق الحرير في حلب ودمشق في القرون الوسطى كثيرة الرواج فيتقاطر اليها تجار الفرنج في كل سنة فيتسوّقون منها ضروب الانسجة الحريريّة المصبوغة بالارجوان ويعودون الى بلادهم بالبرود الثمينة والفُرُش والمصادغ والثياب المطرّزة الغالية الثمن

وبقيت الحرائر السوريّة في رواجها في القرن التاسع والعاشر دون ان يضايق اربابُ الامر على اصحابها مع علمهم بارباحها الى ان تملّك الصليبيُّون على فلسطين وسوريّة وقد وردت في شرائع دولتهم المعروفة بمجالس اورشليم (Assises de Jérusalem) عدّة قوانين في بيع الحرير منعاً لتقليدهِ وتزويرهِ ومما فُرض على الباعة ان يعرضوا منسوجاتهم قبل صبغها على عمّال معلومين ليفحصوها ويتحقّقوا اوزانها وما يدخلها من القطن وغير موادّ غريبة . فكانت هذه القوانين المملوّة حكمةً تزيد ثقة

الزبان في حُسن المنسوجات الشاميَّة فعمَّت شهرتها انحاء العمور كما يشهد على ذلك كرستيان من طروا (Chrestien de Troyes) في احدى رواياته حيث ذكر حرائر انطاكية. وكذلك شهد على حسنها الادريسي فقال: « ويُعمل بانطاكية من الثياب المصمتة الجياد والعتابي والدستواي (ويروى الدستري) والاصبهاني وما شاكلها ». وكانت انطاكية وطرسوس تجهزان ايضاً ثياب القصب المزركشة بخيوط الفضة والذهب وكثر استعمالها في اوربَّة خلل الكهنوت وحليّ الكنائس. وتشهد على ذلك قوائم اثاث البيع الثمينة في القرون المتوسطة فكثيراً ما تجد بينها قطع حرير انطاكية والحلل المنسوجة بالقصب المطرَّزة بالديباج الانطاكي الرفيعة القيمة ذات الالوان الزاهية والتصاوير الرائعة من نباتات وطيور وعروق ذُكر بعضها في قائمة حليّ كنيسة مار بولس في لندن سنة ١٢٩٦

وذكر الشريف الادريسي معامل دمشق ايضاً مثنياً عليها فقال: « ومصانعها في كل ذلك عجيبة تُضاهي ديباجتُها بديعَ ديباجة الروم وتقارب ثياب دستوا (ويروى دستر) وتنافس اعمال اصبهان وتشفُّ على اعمال طُرز نيسابور من جليل ثياب الحرير المُصمتة وبدائع ثياب تنيس وقد احتوت طرُزها على اثانين من اعمال الثياب النفيسة ومحاسن جنَّة فلا يعادلها جنس ولا يقاومها مثال ». وتنيس هذه التي ذكرها كانت ذائعة الشهرة بديباجها المعروف بالي قلمون كان طرازه يتلوَّن بألوان شتى فتمكَّن اهل دمشق من صنعه كاعمال تنيس كما انهم بعد ذلك بقليل احسنوا تقليد الديباج الموصلي والبغدادي

وكانت معامل صور وعكا وطرابلس تتسابق في حسن نساجة الاطلس والاقمشة الحريريَّة المطرَّزة بسُتَّة اسلاك. واختصَّت طرابلس بالكَرَمسوت المنسوج بالوانه

وكان اهل سوريَّة يعتنُون لتربية دود القزّ بزراعة شجر التوت وقد دعاهُ ابن العوَّام من كتَّبة القرن الثاني عشر في كتاب الفلاحة بالفرصاد او توت الابريسم. وكانت النساء مذ ذاك الحين يُعنَين بتربية الدود وتغذيته وعلفه وقطف الشرانق

وبقيت صناعة الحرير زاهية بعد ذلك الى عهد الدولة العثمانية وترى في دمشق فوق مشهد صلاح الدين رايتين من الحرير بديعتين نُسجتا في القرن الخامس عشر. وفي القرن السادس عشر شهد كاتبان من المرسلين على انَّ مدينة حلب كانت تجاري

مدينة ليون بنسج حائرها ومثلها دمشق الّا انّ تربيـة دود القز كان منحصرًا في بيروت وصيداء وطرابلس (لهُ بقيّة)

تاريخ حوادث الشام ولبنان

من السنة ١١٧٩ الى ١٢٥٧ هـ (١٧٨٢ الى ١٨٤١)

عني بنشره الاب لويس معلوف اليسوعي (تابع) .

ثم ان الباشا بعد قتله علي اغا في ذلك النهار نزل ودار البلد جميعها متخفي بزي دالاتي . واشهر النداء بالأمن والأمان وبعد يومين صار مناداة بكامل البلد ان بعد ثلاثة ايام كل بغدادي يوجد بالشام يُقتل . وهذه جاءت من اعظم المحن على البغاددة التجار المتوطنين وصاروا في حيرة كليّة وقدّموا من ترجًا فيهم وما صـار افادة . والتزموا يسافروا للسواحل وخلافها . ومنهم تخبوا بالشام . وكان عسكر المغاربة وغيرهم يكمنون بالطرقات وكل من وجدوه هاربًا يعرّوهُ وقُتل جملة انفار من حرافيش (١ البغاددة الذين كانوا بالقلعة . فانعرض للباشا عن تعدي العسكر فامر لروسائهم ان يجمعوا ناسهم وينعوهم من الاذى وبعد ايام قليلة تهادنت الامور وراق خاطر الوزير وبقيوا بالشام مثل عادتهم

ثم ان الوزير خلع عبد العزيز آغا القامـة وراقت احوال الشام وكان الناس في وجل (خوف) من نهاية مادة القلعة من بعد حدوث مظالم فما حصل من ذلك شيء

ثم بعد ايام قليلة حضر معتمد من والي عكا بيده فرمان بتحصيل الف وثمانماية كيس من والي الشام وذلك عن معروف مدة اشهر انصرف عن يد علي اغا المقتول للعساكر وهي مال سليمان باشا . فاستقام (اقام) المعتمد اياماً بالشام وصدر مراجعات واخيرًا انتهى الحال على شيء يكون

ثم ثاني يوم من ولاية السيد سليمان باشا صار طاعون بالشام وبرّها سنتين اي سنة

١) الحرقوش: الصعلوك من اسافل الناس